من هو الامام مالك؟

هو الإمام أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث، وينتهي نسبه إلى يعرب بن يشجب بن قحطان الأصبحي، وجده هو أبو عامر، وهو صحابي جليل.

وهو أحد أعلام وكبار الشخصيات في الإسلام، وهو إمام دار الهجرة، وقد كانت ولادته بالمدينة المنورة. كما أنه لا تتفق الروايات بشكل قاطع على سنةِ ولادته، ولكن على العموم لا تخرج عن الفترة ما بين سنة 90 هحرية وسنة 97 هجرية.

والأغلب في الصحيح في مولد الامام مالك أنه كان في سنة 93 هجرية، وذلك بالمدينة المنورة. وهذا العام كان سنة موت أنس بن مالك خادم الرسول صلى الله عليه وسلم.

نشأة الامام مالك

نشأ الإمام مالك في بيئة وبيت متدين ملتزم ومتفَـقِّـه في الدين، حيث أنّ جدُّهُ مالك بن أبي عامر كان من كبار التابعين. وقد روى عن عائشة أم المؤمنين و عن عمر بن الخطاب، و عن طلحة بن عبيد الله، و عن عثمان بن عفان. و بالتالي فأسرة مالك هي من الأسر المشهورة بالعلم و الفقه، هذا ما جعل الامام بن مالك قابلاً للتعمق أثر في ميدان الدين و التفقه فيه اكثر و أكثر.

خصوصا أنه قد نشأ وترعرع في صونٍ ورفاهيةٍ ومستوى معيشي مريح. وبالتالي لم يَعْرف عملًا ولا تجارةً ولا شغل أو صناعةٍ، وكان همُّهُ الأوحدو الوحيد هو طلب العلم و رواية الحديث.

أبناء الامام مالك

ولَد الإمام مالك رحمه الله تعالى ثلاثة ابناء (ذكرين و أنثى): يحيا و محمد، و الابنة اسمها فاطمة.

و قد قال عنه ابن شعبان: ” و يحيا ابن مالك روى عن أبيه نسخة من الموطأ، و ذُكر كذلك أنَّه روى عنه في اليمن، و روى عنه محمد بن مسلمة، و ابنه محمد الذي قدم الى مصر، و كتب و حدَّث عنه الحرث بن مسكين ”

فضائل الامام مالك

في الحديث عن مالك جاءت اقوال المحدثين متفقة على أنه كثيرُ المناقب والخصال والفضائل، وأنهُ مثقل بالمواهب والأفضال، حيث انه ابحر في الفقه واتسع مداه في الاحاديث و العلم الشرعي.

واتصف مسار حياته بالتقوى في القول والفعل والالتزام والاجتهاد الديني. جمع بين الاخلاق و العلم الكثير.

و قال عنه و فيه عبد الله بن المبارك إمام خُراسان رحمة الله تعالى عليه :

يَدَع الْجَوابَ فَـلَا يُرَاجَعُ هَيْبَةً

وَالسَّائِلُونَ نَوَاكِسُ الْأَذْقَانِ

أَدَبُ الْوَقَارِ وَعِزُّ سُلْطَانِ التُّقَى

فَهُوَ الْمُطَاعُ وَلَيْسَ ذَا سُلْطَانِ

شيوخ الامام مالك وتلاميذه

لقد أخذ الامام مالك علمه عن عدد من كبار علماء هذه الأمة، و منهم :

الامام نافع

سعيد المقبري

عامر بن عبدالله بن الزبير

ربيعة بن أبي عبدالرحمن

ابن المنكدر

الزهري

عبدالله بن دينار

و بعد ان استوى و نضج علمه، و تمكن و ذاع صيته و كبرت مكانته في الوسط العلمي الاسلامي، بدأ يلقن و يبلغ و ينقل علمه. و كان له عدد هائل من التلاميذ ، انتشَروا في مختلف الامصار في بلاد المسلمين، سواء في مصر أو إفريقيا أو الأندلس أو العراق.

و من الامثلة هناك: ابن القاسم في مصر، و أسد بن الفرات في إفريقيا، و يحيى بن يحيى الليثي في الأندلس، و عبد الرحمن بن مهدي بن حسان العنبري في العراق، و غيرهم.

أعمال الامام مالك وجهوده

لا شك أنه الحديث عن الإمام مالك اليوم يرتبط بشكل مباشر مع المذهب المالكي، و الذي له انتشار واسع في العالم الاسلامي.

و لا يمكن الحديث عن الامام مالك دون الحديث عن أشهر أعماله و مؤلفاته و هو الموطأ. و من بين اعماله الأخرى هناك:

كتاب الأشهركما قلنا “الموطأ”.

الموطأ..جوهر فقه الإمام يُعد كتاب الموطأ من أوائل كتب الحديث وأشهرها في ترتيبه وتركيبه، وفي اجتهاده ونقله، وفي حديثه وفقهه، وقد كان أعظمَ مرجع في عصره وأقدمَه، قال القاضي عياض: “لم يُعتنَ بكتاب من كتب الفقه والحديث اعتناءَ الناس بالموطأ، فإن الموافق والمخالف أجمع على تقديمه وتفضيله وروايته وتقديم حديثه وتصحيحه، وقد اعتنى بالكلام على رجاله وحديثه والتصنيف في ذلك عددٌ كثيرٌ من المالكيين وغيرهم من أصحاب الحديث والعربية”. وقد أثنى كثيرٌ من العلماء على الموطأ، قال الإمام الشافعي: “ما في الأرض كتاب بعد كتاب الله عز وجل أنفع من موطأ مالك، وإذا جاء الأثر من كتاب مالك فهو الثُّريَّا”، وقال أيضاً: “ما بعد كتاب الله تعالى كتابٌ أكثرُ صواباً من موطأ مالك”، وقال ابن مهدي: “لا أعلم من علم الإسلام بعد القرآن أصح من موطأ مالك”، وقال ابن وهب: “من كتب موطأ مالك فلا عليه أن يكتب من الحلال والحرام شيئاً”، وسُئل الإمام أحمد بن حنبل عن كتاب مالك بن أنس فقال: “ما أحسنه لمن تَديَّن به”. وقد قام كثير من العلماء بشرح كتاب الموطأ، ومن أشهر هذه الشروح: “القبس في شرح موطأ مالك بن أنس”، للحافظ، القاضي لأبي بكر محمد بن عبد الله بن العربي المعافر (المتوفى: 543هـ). “التمهيد، لما في الموطأ من المعاني والأسانيد” و”الاستذكار، لمذاهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار، فيما تضمنه الموطأ من معاني الرأي والآثار”، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، المتوفى سنة 463هـ. «المقتبس، شرح موطأ مالك بن أنس”، لأبي محمد عبد الله بن محمد بن السِّيد البَطَلْيوسي المالكي، المتوفى سنة 521هـ. “المسالك في شرح موطأ مالك”، و«”لقبس على موطأ مالك بن أنس”، لمحمد بن عبد الله بن أحمد المشهور بالقاضي أبي بكر بن العربي المالكي المعافري الأندلسي، المتوفى سنة 543هـ. “كشف المُغطَّا عن الموطا” و”تنوير الحوالك” و”إسعاف المُبَطَّأ برجال الموطأ” و”تجريد أحاديث الموطأ” لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي الشافعي المصري، المتوفى سنة 911هـ. “إتحاف العابد الناسك بالمنتقى من موطأ مالك”، لعمر بن أحمد بن علي الشماع الحلبي الشافعي، المتوفى سنة 936هـ. “الفتح الرحماني، شرح موطأ محمد بن الحسن الشيباني”، لإبراهيم بن حسين بن أحمد الحنفي المعروف بالشيخ بيري زاده، مفتي مكة، المتوفى سنة 1099هـ، وهو شرح على الموطأ برواية محمد بن الحسن الشيباني. المدونة الكبرى..أصل الفقه المالكي الثاني تعدّ المدونة الكبرى الأصل الثاني في الفقه المالكي بعد الموطّأ، لأنّها تحمل بين طيّاتها فقه أربعة مجتهدين: مالك وسحنون وابن القاسم وأسد بن الفرات. وتعرف المدونة على أنّها مجموعة من المسائل الفقهية مدونة، وتسمى أيضا المختلطة نظرا لاختلاط مسائلها في الأصل وعدم تبويبها، وتنسب المدونة الكبرى إلى الإمام مالك لأنّها ضمّت جلّ علمه، كما تنسب أيضا إلى الإمام ابن القاسم بإعتبار سماعه عن مالك مع آرائه الفقهية، وتنسب إلى أسد نظرا لسماعه عن ابن القاسم، وتنسب أيضا إلى سحنون بإعتبار أنّه أخذها من أسد بن الفرات، ثمّ رحل بها إلى الإمام ابن القاسم فهذّبها معه، ولذلك كان أصل المدونة ما جاء به أسد بن الفرات وهذّبه ورتّبه و بوّبه سحنون مستعملا في ذلك منهجا خاصا يشمل ما يلى: أولا: من حيث الترتيب؛ فرتبها في أبواب. ثانيا: من حيث الاستدلال؛ بحيث ذيّل كل مسألة بما يناسبها من آيات وأحاديث وآثار. ثالثا: من حيث الاستيعاب؛ بحيث استوعب الأسدية وزاد عليها من آراء كبار أصحاب مالك. ولقد حضيت المدونة بمكانة عالية بين الدواوين والعلماء حتى قيل أنّ ما يروى بعد كتاب الله مدونة سحنون، إلاّ أنّها بالرغم من هذه المكانة تعرّضت إلى محنة عظيمة في حكم الموحّدين حين قاموا بإحراقها قاصدين بذلك القضاء على مذهب الإمام مالك وإزالته من المغرب مرة واحدة. من أقواله وحِكَمه ورد عن الإمام مالك كثيرٌ من الأقوال المأثورة والحكم المشهورة في العلم والعمل، ومما جاء عنه في العلم وآداب المتعلِّمين قوله: ليس العلم بكثرة الرواية، وإنما العلم نور يضعه الله في القلوب. طلب العلم حَسَنٌ لمن رُزق خيرُه، وهو قسم من الله، ولكن انظر ما يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسي فالزمه. العلم نَفورٌ لا يأنس إلا بقلب تقي خاشع ينبغي للرجل إذا خُوِّل علماً وصار رأساً يشار إليه بالأصابع، أن يضع التراب على رأسه، ويمقت نفسه إذا خلا بها، ولا يفرح بالرياسة، فإنه إذا اضطجع في قبره وتوسد التراب ساءه ذلك كله. اتق الله واقتصر على علمك، فإنه لم يقتصر أحد على علمه إلا نفع وانتفع، فإن كنت تريد بما طلبت ما عند الله فقد أصبت ما تنتفع به، وإن كنت تريد بما تعلمت الدنيا فليس في يدك شيء. كما جاء عن الإمام مالك أقوالٌ في أحوال القلوب والسلوك وتربية النفس، منها: من أحب أن تُفتح له فُرجةٌ في قلبه فليكن عمله في السر أفضل منه في العلانية. الزهد في الدنيا طِيب المكسب وقِصَر الأمل. نقاء الثوب وحسن الهمة وإظهار المروءة جزء من بضع وأربعين جزءاً من النبوة. إن كان بغيُك منها ما يكفيك، فأقَلُّ عيشها يغنيك، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى. عليك بمجالسة من يزيد في علمك قولُه، ويدعوك إلى الآخرة فعلُه، وإياك ومجالسة من يعلِّلُك قولُه، ويعيبك دينُه، ويدعوك إلى الدنيا فعلُه. وكان الإمام مالك يَكره كثرةَ الكلام ويعيبه، ويقول: “لا يوجد إلا في النساء والضعفاء”.

رسالة في الأقضية

رسالة في القدر، كتبها إلى ابن وهب، وهي موجودة.

في النجوم ومنازل القمر

رسالة إلى الليث في إجماع أهل المدينة.

رسالة إلى أبي غسان محمد بن مطرف.

رأي أهل العلم في مالك بن أنس

إذا بحثنا فيما قيل عن الإمام مالك سنجد لا شك اقوالا عديدة كلها طيبة و مالحة. و سنعرض بعض الأقوال بخصوص هذا الموضوع.

قال عنه أبو حنيفة: ” والله ما رأيتُ أسرع منه بالجواب الصادقٍ و الزُهْدٍ التامٍّ.

قال عنه أحمد: ” مالك سيد من أسياد أهل العلم، و هو إمام في الحديث و الفقه.”

قال عنه ابن مهدي: ” مالك أفقه من الحكم و حماد، ما رأيت أحدًا أعقل من مالك ابن أنس. ”

قال عنه يحيى بن معين: ” كل مَنْ روى عنه مالك فهو أهل ثقة، إلا أبا أميّة ” قال عنه البخاري: ” أصح الأسانيد هو مالك عن نافع عن ابن عمر “.

قال الإمام الشافعي: إذا ذُكر العلماء فمالك النجم، ومالك حجة الله على خلقه بعد التابعين. وقال: “إذا جاء الأثر فمالك النجم”، وقال: “مالك وابن عيينة القرينان، لولاهما لذهب علم الحجاز”، وقال: “إذا جاءك الحديث عن مالك فشُدَّ يدك به”، رُوي عن عبد السلام بن عاصم أنه قال: قلت لأحمد بن حنبل: “الرجل يريد حفظ الحديث، فحديث من يحفظ؟”، قال: “حديث مالك بن أن”»، قلت: “فالرجل يريد أن ينظر في الرأي، فبرأي من؟”، قال: “فرأي مالك بن أنس”. قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: قلت لأبي: “من أثبت أصحاب الزهري؟”، قال: “مالك أثبت في كل شيء”. قال الإمام النووي: “أجمعت طوائف العلماء على إمامة مالك وجلالته، وعظيم سيادته وتبجيله وتوقيره، والإذعان له في الحفظ والتثبت، وتعظيم حديث رسول الله صلوات الله وسلامه عليه”. قال الإمام الذهبي: “قد اتفق لمالك مناقب ما علمتها اجتمعت لأحد غيره، أحدها: طول العمر والرواية، ثانيها: الذهن الثاقب والفهم وسعة العلم، ثالثها: اتفاق الأئمة على أنه حجة صحيح الرواية، رابعها: إجماع الأئمة على دينه وعدالته واتباعه للسنن، خامسها: تقدمه في الفقه والفتوى وصحة قواعده”. أخرج البخاري عن يحيى بن سعيد القطان أنه قال: “مالك أمير المؤمنين في الحديث”، وأخرج الغافقي عن أبي قلابة أنه قال: “كان مالك أحفظ أهل زمانه”، وأخرج عن ابن مهدي أنه قال: “ما رأيت أعقل من مالك”. أثنى عليه الشيخ أبو زكريا السلماسي فقال: “أما مالك، فإنه لممالك الفضائل مالك، ولمسالك التقوى والورع سالك، إمام دار الهجرة بالاتفاق، ومفتي الحجاز بالإطباق، فقيه الأمة وسيد الأئمة، زكي الطبع والهمة، أول من صنف كتاباً في الإسلام، جمع فيه شرائع الحلال والحرام، ونظم عقود الشرع فيه أحسن نظام، بين فيه عيون الدلائل، وفنون المسائل في الأحكام، فغدا كتابه غرةً في جبين الدين، ودرةً في تاج الفضل واليقين، وسار في البدو والحضر، مسير الشمس والقمر، وصار حجة على الأنام، وقدوة يأتم بها أولو الأحلام، فمالك جمُّ المناقب والفضائل، يمُّ المواهب والفواضل، اتسع في الفضل مجاله، وفاض في الأفضال سجاله، واتسق في التقوى قوله وفعاله، وأصبح قريع عصره، وفريد دهره ومِصره، علماً سار بذكره الركبان، وتعطر بنشره الزمان، جمع بين فصاحة البيان وسماحة البنان، نظم من جواهر الكلام عقداً يزان بمثله نحرُ الإسلام، وصاغ من تبر الشريعة تاجاً، وفتح للسنة البيضاء رتاجاً، وقسم ميراث النبوة بين الأمة الهادية، وبَرَّد بماء الحياة عليل الأنفس الصادية، خُص بالمناقب الشريفة المبينة، والمراتب المنيفة المتينة”.

وفاة الامام مالك

قبل وفاته، سقط الإمام مالك بعض الايام. و قال محمد بن سعد أنه كان اخر ما قاله قبل ان يسلم الروح لبارئها الشهادة حيث قال بعد أن قالوا له تشهَّد، قال: ” لله الأمر من قبل و من بعد”.

وقد توفي الامام مالك صباح يوم 14 ربيع الاول لعام 179 للهجرة. وهو ابن ابن خمس وثمانين سنة (85 سنة). وقد صلى عليه والي المدينة عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن محمد. وقد دُفن بمقبرة البقيع.

معالم من سيرة الإمام مالك بن أنس

السمات النفسية والصفات الخلقية التي أهلت هذا العالم للإمامة في الدين، فوجدت أن أهمها ما يأتي.

السمة الأولى: رسوخه في العلم

قال ابن أبي عمر العدني: سمعت الشافعي يقول: مالك معلمي، وعنه أخذت العلم.

وقال الشافعي، يقول: قال لي محمد بن الحسن: صاحبنا أعلم من صاحبكم -يريد أبا حنيفة ومالكا-وما كان لصاحبكم أن يتكلم، وما كان لصاحبنا أن يسكت. فغضبت، وقلت: نشدتك الله من أعلم بالسنة، مالك أو صاحبكم? فقال: مالك، لكن صاحبنا أقيس. فقلت: نعم، ومالك أعلم بكتاب الله وناسخه ومنسوخه وبسنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من أبي حنيفة، ومن كان أعلم بالكتاب والسنة، كان أولى بالكلام.

وقال ابن عبد الحكم: سمعت الشافعي يقول: قال لي محمد: أيهما أعلم صاحبنا أم صاحبكم? -يعني أبا حنيفة ومالكا- قلت: على الإنصاف? قال: نعم. قلت: أنشدك بالله من أعلم بالقرآن? قال: صاحبكم، قلت: نعم. قلت: من أعلم بالسنة? قال: صاحبكم، قلت: فمن أعلم بأقاويل الصحابة والمتقدمين? قال: صاحبكم. قلت: فلم يبق إلا القياس، والقياس لا يكون إلا على هذه الأشياء، فمن لم يعرف الأصول على أي شيء يقيس؟

قال الذهبي: بل هما سواء في علم الكتاب، والأول: أعلم بالقياس، والثاني: أعلم بالسنة، وعنده علم جم من أقوال كثير من الصحابة، كما أن الأول أعلم بأقاويل علي، وابن مسعود، وطائفة ممن كان بالكوفة من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم، فرضي الله عن الإمامين.

بل كان كبار العلماء يتفاخرون أنهم رووا عن مالك، فق قال الشافعي: قال محمد بن الحسن: أقمت عند مالك ثلاث سنين وكسرا، وسمعت من لفظه أكثر من سبعمائة حديث، فكان محمد إذا حدث عن مالك امتلأ منزله، وإذا حدث عن غيره من الكوفيين، لم يجئه إلا اليسير.

السمة الثانية: مشورته لأهل العلم قبل التعليم

يلحظ أنه رحمه الله يستشير أشياخه قبل تصدره للفتوى، فقد قال مالك : ما أفتيت حتى شهد لي سبعون أني أهل لذلك.

وعندما ألف أو مصنف في السنة، عرضه على علماء المدينة، فوافقوه عليه، فسماه الموطأ، لتواطئ علماء المدينة على ما فيه.

السمة الثالثة: تعبده لله تعالى بما تميل له نفسه

عبدالله العمري العابد أحد علماء المدينة المشهورين كتب إلى مالك يحضه على الانفراد والعمل. فكتب إليه مالك: إن الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فرب رجل فتح له في الصلاة، ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الصدقة ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الجهاد. فنشر العلم من أفضل أعمال البر، وقد رضيت بما فتح لي فيه، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر.

وهذا يوضح سعة مفهوم العبادة، وأما العبادات الظاهرة فقد كانت – بمفهوم ذلك الزمن – ليست ظاهرة للناس، فقد قال ابن المبارك: ما رأيت أحدا ارتفع مثل مالك، ليس له كثير صلاة ولا صيام، إلا أن تكون له سريرة.

وهذا لا يعني أنه ليس له من عبادات النوافل نصيب ألبتة، فقد قال ابن وهب: قيل لأخت مالك: ما كان شغل مالك في بيته? قالت: المصحف، التلاوة.

السمة الرابعة: إعزازه للعلم

يلحظ أن في سيرة الإمام مالك – رحمه الله -عدة مواقف تدل على صيانته للعلم من الابتذال من الكبار والأمراء، وقد كان يربي طلابه على ذلك، فقد قال ابن وهب: ما نقلنا من أدب مالك أكثر مما تعلمنا من علمه.

ومن أشهر المواقف في ذلك موقفه مع الخليفة العباسي المهدي، فقد قدم المهدي المدينة، فبعث إلى مالك، فأتاه، فقال لهارون وموسى: اسمعا منه فبعث إليه، فلم يجبهما، فأعلما المهدي، فكلمه فقال: يا أمير المؤمنين! العلم يؤتى أهله. فقال: صدق مالك، صيرا إليه. فلما صارا إليه، قال له مؤدبهما: اقرأ علينا. فقال: إن أهل المدينة يقرءون على العالم، كما يقرأ الصبيان على المعلم، فإذا أخطئوا، أفتاهم. فرجعوا إلى المهدي، فبعث إلى مالك، فكلمه، فقال: سمعت ابن شهاب يقول: جمعنا هذا العلم في الروضة من رجال، وهم يا أمير المؤمنين: سعيد بن المسيب، وأبو سلمة، وعروة، والقاسم، وسالم، وخارجة بن زيد، وسليمان بن يسار، ونافع، وعبد الرحمن بن هرمز، ومن بعدهم: أبو الزناد، وربيعة، ويحيى بن سعيد، وابن شهاب، كل هؤلاء يقرأ عليهم، ولا يقرءون. فقال: في هؤلاء قدوة، صيروا إليه، فاقرءوا عليه، ففعلوا.

ومن ذلك أن هارون الرشيد سأل مالكا -وهو في منزله، ومعه بنوه- أن يقرأ عليهم. قال: ما قرأت على أحد منذ زمان، وإنما يقرأ علي. فقال: أخرج الناس حتى أقرأ أنا عليك. فقال: إذا منع العام لبعض الخاص، لم ينتفع الخاص. وأمر معن بن عيسى، فقرأ عليه.

وورد عن مالك، أنه قال: قدم هارون يريد الحج، ومعه يعقوب أبو يوسف، فأتى مالك أمير المؤمنين، فقربه، وأكرمه، فلما جلس، أقبل إليه أبو يوسف، فسأله عن مسألة، فلم يجبه، ثم عاد، فسأله فلم يجبه، ثم عاد, فسأله، فقال هارون: يا أبا عبد الله! هذا قاضينا يعقوب يسألك. قال: فأقبل عليه مالك، فقال: يا هذا! إذا رأيتني جلست لأهل الباطل فتعال، أجبك معهم.

وكان من تعظيمه للعلم أن يسلم على الخلفاء دون أن يذل نفسه، فقد روى ابن وهب عن مالك، قال: دخلت على المنصور، وكان يدخل عليه الهاشميون، فيقبلون يده ورجله، وعصمني الله من ذلك.

ومن مظاهر تعظيمه للعلم، أنه يتطيب ويلبس أفخر لباس قبل التدريس، فقد قال قتيبة: كنا إذا دخلنا على مالك، خرج إلينا مزينا، مكحلا، مطيبا، قد لبس من أحسن ثيابه، وتصدر الحلقة، ودعا بالمراوح، فأعطى لكل منا مروحة.

وقال محمد بن الضحاك الحزامي: كان مالك نقي الثوب، رقيقه، يكثر اختلاف اللبوس.

وقال خالد بن خداش: رأيت على مالك طيلسانا وثيابا مروية جيادا.

وقال أشهب: كان إذا اكتحل للضرورة جلس في بيته.

وقال مصعب: كان يلبس الثياب العدنية ويتطيب.

وعن بشر بن الحارث، قال: دخلت على مالك، فرأيت عليه طيلسانا يساوي خمسمائة، وقد وقع جناحاه على عينيه أشبه شيء بالملوك.

وكان يبث ذلك في طلابه، فقد روى ابن وهب قال: سمعت مالكا يقول: حق على من طلب العلم أن يكون له وقار، وسكينة، وخشية، والعلم حسن لمن رزق خيره، وهو قسم من الله -تعالى- فلا تمكن الناس من نفسك، فإن من سعادة المرء أن يوفق للخير، وإن من شقوة المرء أن لا يزال يخطئ، وذل وإهانة للعلم أن يتكلم الرجل بالعلم عند من لا يطيعه.

ومن مظاهر ذلك أنه ينتقي من الشيوخ من يحترم العلم، فقد نقل عن ابن القاسم، قال: قيل لمالك: لم لم تأخذ عن عمرو بن دينار? قال: أتيته، فوجدته يأخذون عنه قياما، فأجللت حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن آخذه قائما.

وكان يحث طلابه على الانتقاء من الشيوخ، فعن مالك، قال: لا يؤخذ العلم عن أربعة: سفيه يعلن السفه، وإن كان أروى الناس، وصاحب بدعة يدعو إلى هواه، ومن يكذب في حديث الناس، وإن كنت لا أتهمه في الحديث، وصالح عابد فاضل، إذا كان لا يحفظ ما يحدث به.

السمة الخامسة: تربيته طلابه على عدم الخوض فيما لا يحسنون

كان رحمه الله يكثر من قول لا أدي، وصح عنه أنه قال: جنة العالم: "لا أدري"، فإذا أغفلها أصيبت مقاتله.

وقال الهيثم بن جميل: سمعت مالكا سئل عن ثمان وأربعين مسألة، فأجاب في اثنتين وثلاثين منها بـ: لا أدري.

وعن خالد بن خداش، قال: قدمت على مالك بأربعين مسألة، فما أجابني منها إلا في خمس مسائل.

وعن ابن وهب عن مالك، سمع عبد الله بن يزيد بن هرمز يقول: ينبغي للعالم أن يورث جلساءه قول: "لا أدري"، حتى يكون ذلك أصلا يفزعون إليه.

ويظهر لي في تفسير ذلك أحد ثلاثة أمور:

1- أنه يعلم في هذه المسائل الكثير، لكنه لم يترجح له فيها شيء،

2- وربما أنها من المسائل التقديرية التي لم تقع، وقد كان ينهى عن الفقه الافتراضي، وعن مسائل الأغلوطات.

3- أنه وجد غلوا من الطلبة بحيث يرحل له طالب من الأندلس لأجل سؤاله عن مسائل، فأراد أن يؤدب نفسه، ويربي هذا الطالب بقوله: لا أدري.

السمة السادسة: مراعاته للخلاف

روى أحد طلابه عنه أنه قال: قال لي المهدي: ضع يا أبا عبد الله كتابا أحمل الأمة عليه. فقلت: يا أمير المؤمنين، أما هذا الصقع -وأشرت إلى المغرب- فقد كفيته، وأما الشام، ففيهم من قد علمت -يعني: الأوزاعي- وأما العراق, فهم أهل العراق.

ووحدث له قصه تدل على عظيم ورعه، ومراعاته لخلاف غيره من أهل العلم في الأمصار، فقد ذكر ابن سعد: حدثنا محمد بن عمر، سمعت بن عمر مالكا يقول: لما حج المنصور، دعاني، فدخلت عليه، فحادثته، وسألني، فأجبته، فقال: عزمت أن آمر بكتبك هذه -يعني: "الموطأ"- فتنسخ نسخا، ثم أبعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين بنسخة، وآمرهم أن يعملوا بما فيها، ويدعوا ما سوى ذلك من العلم المحدث، فإني رأيت أصل العلم رواية أهل المدينة وعلمهم. قلت: يا أمير المؤمنين لا تفعل، فإن الناس قد سيقت إليهم أقاويل، وسمعوا أحاديث، ورووا روايات، وأخذ كل قوم بما سيق إليهم، وعملوا به، ودانوا به، من اختلاف أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وغيرهم، وإن ردهم عما اعتقدوه شديد، فدع الناس وما هم عليه، وما اختار أهل كل بلد لأنفسهم. فقال: لعمري، لو طاوعتني لأمرت بذلك.

وقال الزبير بن بكار: حدثنا ابن مسكين، ومحمد بن مسلمة، قالا: سمعنا مالكا يذكر دخوله على المنصور، وقوله في انتساخ كتبه، وحمل الناس عليها، فقلت: قد رسخ في قلوب أهل كل بلد ما اعتقدوه وعملوا به، ورد العامة عن مثل هذا عسير.

وعن مالك قال: شاورني هارون الرشيد في ثلاثة: في أن يعلق "الموطأ" في الكعبة، ويحمل الناس على ما فيه، وفي أن ينقض منبر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ويجعله من ذهب وفضة وجوهر، وفي أن يقدم نافعا إماما في مسجد النبي -صلى الله عليه وسلم. فقلت: أما تعليق "الموطأ"، فإن الصحابة اختلفوا في الفروع، وتفرقوا، وكل عند نفسه مصيب، وأما نقض المنبر، فلا أرى أن يحرم الناس أثر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأما تقدمتك نافعا، فإنه إمام في القراءة، لا يؤمن أن تبدر منه بادرة في المحراب، فتحفظ عليه. فقال: وفقك الله يا أبا عبد الله.

ومن اهتمامه بمراعاة الخلاف، عدم اعتباره لكلام المخالفين له بالباطل، فقد قال مطرف بن عبد الله: قال لي مالك: ما يقول الناس في? قلت: أما الصديق فيثني، وأما العدو فيقع. فقال: ما زال الناس كذلك، ولكن نعوذ بالله من تتابع الألسنة كلها.

وقد كان ينهى طلابه ومحبيه عن التقليد، ومن أقواله الشهيرة: كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب هذا القبر -صلى الله عليه وسلم.

السمة السابعة: صبره على الابتلاء وظلم الولاة

كان ابتلاؤه بسبب فتوى، فرح بها منافسوه فوشوا بها إلى أمير المدينة، فقد قال الواقدي: لما دعي مالك، وشوور، وسمع منه، وقبل قوله، حسد، وبغوه بكل شيء، فلما ولي جعفر بن سليمان المدينة، سعوا به إليه، وكثروا عليه عنده، وقالوا: لا يرى أيمان بيعتكم هذه بشيء، وهو يأخذ بحديث رواه عن ثابت بن الأحنف في طلاق المكره: أنه لا يجوز عنده. قال: فغضب جعفر، فدعا بمالك، فاحتج عليه بما رفع إليه عنه، فأمر بتجريده، وضربه بالسياط، وجبذت يده حتى انخلعت من كتفه، وارتكب منه أمر عظيم، فوالله ما زال مالك بعد في رفعة وعلو.

مالكا لما ضرب، حلق، وحمل على بعير، فقيل له: ناد على نفسك. فقال: ألا من عرفني، فقد عرفني، ومن لم يعرفني، فأنا مالك بن أنس، أقول. طلاق المكره ليس بشيء. فبلغ ذلك جعفر بن سليمان الأمير، فقال: أدركوه، أنزلوه.

وقد نهى أبو جعفر مالكا عن رواية حديث: "ليس على مستكره طلاق". ثم دس إليه من يسأله، فحدثه به على رءوس الناس، فضربه بالسياط.

قال الذهبي: هذا ثمرة المحنة المحمودة، أنها ترفع العبد عند المؤمنين، وبكل حال فهي بما كسبت أيدينا، ويعفو الله عن كثير: "ومن يرد الله به خيرا يصيب منه". وقال النبي -صلى الله عليه وسلم: "كل قضاء المؤمن خير له" 2. وقال الله -تعالى: {ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين} [محمد: 31] . وأنزل -تعالى- في وقعة أحد قوله: {أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم} [آل عمران: 165] . وقال: {وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير} [الشورى: 30] . فالمؤمن إذا امتحن صبر واتعظ واستغفر، ولم يتشاغل بذم من انتقم منه، فالله حكم مقسط، ثم يحمد الله على سلامة دينه، ويعلم أن عقوبة الدنيا أهون وخير له.

السمة الثامنة: عنايته بمقاصد الشريعة وجوهرها

يلحظ في فقه الإمام مالك – رحمه الله – أنه يعظم نصوص الوحيين، ويأخذ بالإجماع والقياس، ويقدر أقوال علماء مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو أشد المذاهب في سد الذرائع وحسم مادة الحيل، ومراعاة المقاصد. ولذا كان الإمام ابن تيمية – رحمه الله – يثني كثيرا على اختياراته في باب المعاملات لكونها مبنية على معقولية المعنى.

السمة التاسعة: تعظيمه للسنن وشدته في رد البدع وأهلها

كان ينهى عن الجدال في الدين، فقد قال ابن وهب، سمعت مالكا يقول: ليس هذا الجدل من الدين بشيء.

وقال أبو ثور سمعت الشافعي يقول: كان مالك إذا جاءه بعض أهل الأهواء، قال: أما إني على بينة من ديني، وأما أنت، فشاك, اذهب إلى شاك مثلك، فخاصمه.

وروى جعفر بن عبد الله، قال: كنا عند مالك فجاءه رجل، فقال: يا أبا عبد الله: {الرحمن على العرش استوى} [طه: 5] ، كيف استوى? فما وجد مالك من شيء ما وجد من مسألته، فنظر إلى الأرض، وجعل ينكت بعود في يده، حتى علاه الرحضاء1، ثم رفع رأسه، ورمى بالعود، وقال: الكيف منه غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وأظنك صاحب بدعة. وأمر به فأخرج.

وانصرف مالك يوما، فلحقه رجل يقال له: أبو الجويرية، متهم بالإرجاء، فقال: اسمع مني. قال: احذر أن أشهد عليك. قال: والله ما أريد إلا الحق، فإن كان صوابا، فقل به، أو فتكلم قال: فإن غلبتني؟ قال: اتبعني. قال: فإن غلبتك؟ قال: اتبعتك. قال: فإن جاء رجل، فكلمنا، فغلبنا? قال: اتبعناه، فقال مالك: يا هذا، إن الله بعث محمدا -صلى الله عليه وسلم- بدين واحد، وأراك تتنقل.

وكان يرى تعزير المبتدعة بترك الصلاة خلفهم، فقد قال أصبغ: حدثنا ابن وهب عن مالك -وسئل عن الصلاة خلف أهل البدع القدرية وغيرهم- فقال: لا أرى أن يصلى خلفهم. قيل: فالجمعة? قال: إن الجمعة فريضة، وقد يذكر عن الرجل الشيء وليس هو عليه. فقيل له: أرأيت إن استيقنت، أو بلغني من أثق به، أليس لا أصلي الجمعة خلفه? قال: إن استيقنت. كأنه يقول: إن لم يستيقن ذلك، فهو في سعة من الصلاة خلفه.

وبعد، فهذه نبذ عن هذا الإمام الجليل، فرحمه الله ونفعنا بما ترك من علم، ولعل الله أن ييسر مقالا آخر عن معالم مهمه في مذهبه.

المصادر

↑1 الثقات للعجلي (ص 417)، وتاريخ خليفة بن خياط (ص 451)، ومشاهير علماء الأمصار للبُستي: (ص 223)

↑2 سير أعلام النبلاء للذهبي (7/ 150)

↑3 الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، لابن فرحون (1/86)

↑4 حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو النعيم الأصبهاني (6/ 318)

↑5 ترتيب المدارك وتقريب المسالك، للقاضي عياض (1/ 152)

↑6 تاريخ الإسلام؛ للذهبي (11/ 321)

↑7 تهذيب الكمال في أسماء الرجال، للمزي (18/ 264